ابن عبد البر
(٣٦٨-٤٦٣هـ)

نشأته :

هو من كبار علماء الأندلس، ولد فيها ونشأ، ولم يغادرها إلى أى مكان آخر مثلما كان الأمر بالنسبة إلى الكثرة الغالبة من علماء المسلمين، وكان مولده فى قرطبة عام(٣٦٨) للهجرة، واسمه كاملا : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى القرطبى، وهو ينتمى إلى أصل عربى لقبيلة من قبائل ربيعة بن نزار، وهى من القبائل العدنانية (عبد البديع الخولى، ١٩٨٥، ص ٨٩) .

استطاع أن يستوعب الكثير من المعرفة الدينية القائمة وما يتصل بها، حتى ذلك الوقت، على يد عدد من كبار علماء الأندلس، ومن فروع هذه المعرفة التى حصل فيها الشىء الكثير: التفسير، والقراءات، والفقه، والحديث، وعلوم العربية والتاريخ والأنساب، لكن المجال الذى استقطب الكثير من جهده هو الحديث النبوى، وكانت وفاته عام (٤٦٣) للهجرة (١٠٧٠م).

وكان ابن عبد البر يحظى بقدر عالٍ من الاحترام والتقدير من قِبَل أمراء الطوائف، على الرغم من أن بعضهم عرف عنه القسوة والاستبداد، ولعل ما ساعد ابن عبد البر فى أن لا يصطلى بالنيران السياسية فى زمنه هو حرصه على الوقوف موقف حياد من المنازعات والخلافات التى كانت قائمة (عبد البديع، ص ٩٠) .

وقد استطاع أن يمد المكتبة العربية الإسلامية بالكثير من المؤلفات التى حظيت طوال القرون التالية بالاهتمام والتقدير والتأثير، فألف فى الحديث، والفقه والأدب، مما دفع أقرانه من علماء الأندلس أن يشيدوا به، وعلى رأسهم ابن حزم الفقيه الظاهرى الشهير .

لكن الملاحظ أن ابن عبد البر فى كتابه الشهير (جامع بيان العلم وفضله) الذى نستقى

obeikandi.com

منه آراءه التربوية، كان للرواية أميل منه للدراية، بمعنى أنه اجتهد كثيرًا فى جمع عشرات النصوص والأحاديث، وبذل جهدًا كبيرًا فى تصنيفها،وفى صياغات مختلفة للكثير منها، لكنه يكتفى بموقف الراوى دون أن يعقب ويحلل ويبدى رأيه،ولعل هذا يمكن أن يدفع البعض إلى التساؤل : فلم إذن نقحمه ضمن أعلام الفكر التربوى الإسلامى والآراء التى أوردها ليست خاصة به هو ؟

الرد على ذلك أن عملية الاختيار نفسها وكذلك عملية التصنيف إنما تنبئ عن "خريطة فكرية" فىعقل المختار المصنف؛ ولذلك نرى أنه صاحب الهيكل الخرسانى للقضايا المثارة،والخريطة الفكرية،وكثير من علماء التربية المسلمين هم كذلك اعتمدوا اعتمادًا رئيسيًّا على رواية أحاديث رسول الله ﷺ، وآيات متعددة من القرآن الكريم، فالرجل إذن يمكن اعتباره مفكرًا بهذا الاعتبار، لكن من الصعب أن نزعم أنه كان مبدعًا، صاحب نظرية تربوية.

الكتاب :

والقارئ لمقدمة كتابه، يعرف أنه جاء استجابة لطلب بعض طلاب العلم الذين كانوا يتعلمون على يديه، وهو الأمر المتكرر الذى وجدناه لدى الكثرة الغالبة من الفقهاء وعلماء الحديث الذين طرقوا باب التربية والتعليم، ومن هنا كتب يقول فى هذه المقدمة: "سألتنى -رحمك الله- عن معنى العلم وفضل طلبه، وحمد السعى فيه والعناية به، وعن تثبيت الحجاج بالعلم، وتبيين فساد القول فى دين الله بغير فهم، وتحريم الحكم بغير حجة، وما الذى أجيز من الاحتجاج والجدل، وما الذى كره منه، وما الذى ذم من الرأى وما حمد منه،وما يجوز من التقليد وما حرم منه، ورغبت أن أقدم لك قبل هذا من آداب التعلم وما يلزم العالم والمتعلم التخلق به والمواظبة عليه، وكيف وجه الطلب، وما حمد ومدح فيه من الاجتهاد والنصَب، إلى سائر أنواع آداب التعلم والتعليم، وفضل ذلك وتلخيصه بابًا بابًا، مما روى عن سلف هذه الأمة رضى الله عنهم أجمعين لتتبع هديهم، وتسلك سبيلهم، وتعرف ما اعتمدوا عليه من ذلك مجتمعين أو مختلفين فى المعنى، فأجبتك إلى ما رغبت، وسارعت فيما طلبت، رجاء عظيم

الثواب، وطمعًا فى الزلفى يوم المآب، ولما أخذه الله – عز وجل– على المسئول العالم بما سئل عنه من بيان ما طلب منه وترك الكتمان لما علمه، قال – عز وجل– فى سورة آل عمران: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾، وقال رسول الله ﷺ: "من سئل علمًا فكتمه جاء يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار" .

وبالتمعن فى سطور هذه المقدمة، يمكن للقارئ أن يخرج بالملاحظات التالية :

١– أن التأليف عندما يأتى بناء على طلب من طلاب المعرفة، فهذا يعنى أنه لم يأتِ وفقًا لاهتمامات المؤلف الشخصية، ولا وفق تأملات عقلية، وإنما هى بالضرورة تستجيب لاحتياجات المتعلمين، فكأن ما يشبه "الاستطلاعات الأولية" التى يجريها بعض الباحثين لتحسس أرض المعركة العلمية أو الدراسة العلمية هى التى جرت هنا .

٢– لابد أن تستوقفنا بعض العبارات، وهى ثلاث، لكنها تتحد فى الدلالة، وتتفق فى المعنى، ألا وهى "تثبيت الحجاج بالعلم" ، "وفساد القول فى دين الله بغير فهم" ، و"تحريم الحجة بغير علم" ، فالعبارات الثلاث تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك كيف أن التربية الإسلامية، على غير ما اتهمها به بعض أعدائها، "علمية" و "عقلية" و "منطقية" ، وإذا كان البعض ممن اندرجوا تحت لوائها قد سار بعض خطواته على غير هذا النهج، فنكرر هنا المقولة الشهيرة ألا نحاكم الحق بالرجال، بل نحاكم الرجال بالحق.

٣– أن "التعليم" هو واجب مقدس، بمعنى إفادة الآخرين بما نعلم، إلى درجة التهديد باللحاق بجهنم لمن يقصر فى تزويد المحتاجين إلى المعرفة بما يطلبون !

٤– كان ابن عبد البر على درجة عالية من الأمانة العلمية، فنحن لم نبالغ ولم نتجنَّ عليه عندما قلنا أنه جنح إلى "الرواية" أكثر من "الدراية" ، حيث أقر بأنه جمع الكثير من آثار سلف الأمة ولخصه لنا هنا فى هذا الكتاب .

٥- أن الوقوف على ما ارتآه علماء السلف من آراء فى التربية ليس لمجرد المعرفة والاستيعاب والحفظ، وإنما لاقتفاء أثرهم العلمى فى الحياة "لتتبع هديهم وتسلك سبيلهم"، سواء كانوا فى كل هذا "مجتمعين" أو "مختلفين" !

٦- أن المربى والكاتب، إذا كان واجبًا عليه أن يستجيب لاحتياجات المتعلمين فى طلب المعرفة، ومن ثم يكون هذا مقصده، إلا أنه يبتغى من وراء ذلك مقصدًا أهم، ألا وهو "رجاء عظيم الثواب، وطمعًا فى الزلفى يوم المآب".

ولعلنا بعد هذا نتوقف أمام بعض "المحطات" المهمة فى هذا الكتاب :

فريضة التعلم :

أورد ابن عبد البر العديد من الروايات، ذات صياغات متقاربة، كلها تشير إلى اعتبار رسول الله ﷺ أن من الفرائض الواجبة على المسلم، أن يسعى طلبًا للمعرفة وتحصيل العلم،حيث قال رسول الله: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"، وهذا التعبير فى الحقيقة "فريضة" لابد أن يستوقف النظر، فنحن لا نجد أنفسنا أمام "حق التعليم"، ذلك أن الحق، قد يعنى أن يوفره ولى الأمر لطالبه، لكن لا يكون هناك إلزام على صاحب الحق أن يستمتع به، أما عندما يكون "فريضة" فهذا يعنى أن يؤجر ويثاب إذا قام بها، و"يُؤَثَّم" و يعاقب إذا لم يقم بها .

ومن العبارات التى أضافتها بعض الروايات: "اطلبوا العلم ولو فى الصين"، و"طالب العلم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر". و"والله يحب إغاثة اللهفان".

وربما يتساءل البعض عن طلب العلم فى الصين، حيث لا تحفظ الآثار التاريخية أن الصين كانت مصدرًا مرموقًا فى المعرفة والعلوم، فضلاً عن أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- كان يعنى بطبيعة الحال العلم الدينى، دون أن يظل هذا المعنى على حدوده بعد ذلك، فهو النسق المعرفى الوحيد الذى كان قائمًا، لكننا نأخذ بقاعدة خصوص اللفظ وعموم الدلالة، فما دام

معنى العلم قداتسع ليشمل العديد من الأنساق المعرفية الأخرى، يظل الحكم قائمًا، ما دامت الضوابط المنهجية والشرعية والإيمانية مستمرة .

وإجابة عن التساؤل الذى بدا فى الفقرة السابقة، فإننا نرجح – والله أعلم – أن ذكر الصين، إن صح، فهو لمجرد اختيار أبعد منطقة قائمة، كناية عن أن المطلوب من المسلم ألا يحتج أبدًا، وهو يطلب المعرفة ببعد المكان .

لكن للفريضة بعد آخر كان لا بد للعلماء من مناقشته، فهناك ما هو فرض عين، وهناك ما هو فرض كفاية، فإلى أى النوعين تنسب فرضية التعلم؟

وهناك ما يشبه الإجماع بأن التعلم هو فرض كفاية، يكفى أن يقوم به البعض ليسقط فرضه على الآخرين،ويستدلون على ذلك بما ورد فى سورة التوبة: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾، فالله – سبحانه وتعالى– ألزم هنا البعض دون الكل،وهؤلاء لا بد لهم أن ينطلقوا ليعلموا غيرهم،وهو الأمر نفسه الذى نلاحظه فى الآية نفسها بالنسبة إلى الجهاد الذى هو فريضة، حيث تصرح الآية بأنه ليس مطلوبًا من الجميع، وإنما من يقدر عليه (جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص ١٣).

وأورد ابن عبد البر أحاديث أخرى تكشف كلها عن التوجه نفسه، من حيث ضرورة أن يعى كل مسلم أن العلم مما هو محل تقدير، وبالتالى فإن طلبه يكون على نفس القدر . فمن هذه الأحاديث (ج١، ص ١٦) :

"ما من رجل يسلك طريقًا يلتمس فيه علمًا إلا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه" أخرجه مسلم ورواه الأربعة والحاكم وصححه وقال على شرطهما الشيخان.

"ما من قوم يجتمعون فى بيت من بيوت الله يتعلمون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده ..." .

ففى هذا الحديث تركيز على "الموقف الجماعى" بأن يتلقى المسلمون العلم "جماعة"، عن طريق مجالس التعليم، وكأنها مثل صلاة الجماعة، وإذا كان التركيز كما هو واضح على قضايا مباشرة فى التعليم الدينى، فنحن نؤكد أن هذا كان ضرورياً فى العهد الأول لحاجة المسلمين إلى إرساء الأسس الرئيسية التى يقوم عليها بناء الشخصية المسلمة، ويظل هذا أمرًا واجبًا وفريضة على مر العصور، لكن يضاف إليه كذلك ما أصبح "بنية أساسية" لحسن قيام الأمة بسلوك الطريق الذى يجعل منها أمة مرهوبة الجانب، عزيزة بين العالمين، قوية البنيان .

وإذ نقرأ أيضًا لرسول الله ﷺ قوله: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء، من صدقة جارية، أو علم ينتفع به بعده، أو ولد صالح يدعو له"، فلا بد أن يستوقفنا هنا أن اثنين من الثلاثة يقعان فى دائرة التربية والتعليم، فلن يدعو الولد لوالديه إلا إذا أحسنا تربيته وتنشئته، وعلماه كيف يكون فعالاً متقنًا لعمله ودودًا، يقدره من يتعاملون معه ويحبونه.

ومن الأحاديث المتفق عليها ما رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قوله: "لا حسد إلا فى اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطته على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى به ويعلمها"، ولا يكون الشىء موضع تحاسد بين الناس إلا بقدر ما يكون عليه من علو شأن وقدرة على إسعاد خلق الله، كما يلمس الناس ويخبرون فى حياتهم العلمية بالنسبة إلى المال، لكن رسول الله ﷺ هنا يقرنه بالعلم، وكأنه بذلك يعتبره "ثروة"، بالمعنى نفسه الذى اكتشفه بعض العلماء فى أواسط القرن الماضى عندما قالوا بالموارد البشرية، وبأن التعليم جهد استثمارى وليس خدميًا فقط.

ومن هنا فقد حث - سبحانه وتعالى- نساء المؤمنين أن يحرصن على تلاوة كتاب الله، حيث هو منبع المعرفة الإسلامية وأصلها، وهن عندما يفعلن ذلك فسوف يدفعهم من غير شك إلى السعى نحو آفاق أخرى من المعرفة النبوية التى تسعى إلى إعلاء كلمة الله، فقال فى سورة الأحزاب: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤ ﴾.

وقد تكرر لفظ "الحكمة" فى كتاب الله عدة مرات، مما دفع بعض علماء التفسير والفقه

إلى التفكير فيما يقصده المولى من "الحكمة"، حيث قال البعض: إنها "السنة النبوية"، لكن نقل عن الإمام مالك قوله: "الذى يقع فى قلبى أن الحكمة هى الفقه فى دين الله" (جامع بيان العلم وفضله، ج١ص٢١)، وكان مما استدل به على هذا أن الرجل تجده عاقلا فى أمر الدنيا، ذا نظر فيها وبصر، ولا علم له بدينه، وتجد آخر ضعيفًا فى أمر الدنيا عالما بأمر دينه، بصيرًا به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، "فالحكمة: الفقه فى دين الله".

ومما رواه البخارى فى صحيحه، عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم: من أكرم الناس ؟ قال "أتقاهم". قالوا : ليس عن هذا نسألك. قال: "فأكرم الناس نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله"، يعنى يوسف بن يعقوب ... قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال : "فعن معادن العرب تسألونى : إن خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا"، فانظر أخى القارئ كيف يجعل الرسول ﷺ من معيار يمكن أن يساوى بين خيار الناس فى الجاهلية وفى الإسلام، ألا وهو "الفقه"، لا بمعنى العلم المعروف بهذا الاسم فى وقتنا الراهن، ولكن بمعنى الفهم والوعى والمعرفة المنضبطة، المؤثرة الفاعلة فى سلوك الناس وهدايتهم إلى طريق الاستقامة .

وفى حديث آخر لرسول الله ﷺ نجده يحدد الفقه بأنه: "الفقه فى الدين"، عندما قال فيما رواه البخارى: "من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين".

ويصل الحث على طلب المعرفة والتشجيع عليه بأن يعلن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بتفوق العلم على العبادة عند المقارنة والتفضيل، والأفضل حقًّا هو اكتساب الاثنين معًا، لكن، إذا كانت هناك مقارنة فالعلم يتفوق، وفقًا لقوله صلى الله عليه وسلم: "قليل من العلم خير من كثير من العبادة، وكفى بالمرء علمًا إذا عبد الله، وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه، إنما الناس رجلان: عالم وجاهل، فلا تمار العالم ولا تحاور الجاهل".

وعندما وعى فقهاء الأمة العظام هذه الحقيقة النبوية والتربوية وجدنا ابن وهب يحدث بأنه كان عند مالك بن أنس، فجاءت صلاة الظهر أو العصر، وهو يقرأ عليه وينظر فى العلم بين يديه، فجمع كتبه وقام ليركع، فقال له مالك : ما هذا ؟ قال أقوم إلى الصلاة . قال مالك :

إن هذا لعجب ! ما الذى قمت إليه بأفضل من الذى كنت فيه إذا صحت النية فيه!(جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص ٣٠).

وجاء رجل من المدينة إلى أبى الدرداء وهو بدمشق فسأله عن حديث، فقال له أبو الدرداء: أبشر فإنى سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يقول: "ما من عبد يخرج يطلب علمًا إلا وضعت له الملائكة أجنحتها وسلك به طريقًا إلى الجنة، وإنه ليستغفر للعالم من فى السماوات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء . إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ولكنهم ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر" (جامع بيان العلم، ج١، ص ٤٠).

وفى رواية كميل بن زياد النخعى عن على – رضى الله عنه– قال : العلم خير من المال؛ لأن المال تحرسه والعلم يحرسك، والمال تفنيه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق. والعلم حاكم والمال محكوم عليه . مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر،أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة" (جامع بيان العلم، ج١، ص ٦٨).

وقد تطرف البعض فى فهم مثل هذه المقولة وغيرها مما يماثلها فى المعنى والمضمون، فتصوروا أن الإسلام يُرَغّب المسلمين عن المال، ويحبذ الفقر، وهذا غير صحيح، فإن المعنى المفهوم هو أن ننزل المال منزلته باعتباره "وسيلة" إلى ما هو أرفع وأعز، حيث إنه تحول لدى كثيرين إلى غاية فى حد ذاته، وكان من شأن هذا أن يجر ويلات كثيرة على صاحب هذه النزعة .

وقيل لبزرجهر : أيهما الأفضل: الأغنياء أم العلماء ؟ فقال : العلماء، قيل له: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء ؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى، وجهل الأغنياء بفضل العلم (جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٧١).

وقالت امرأة لإبراهيم النخعى : يا أبا عمران، أنتم معشر العلماء أحدُّ الناس وألوم الناس ؟ فقال لها : أما ما ذكرت من الحدة، فإن العلم معنا والجهل مع مخالفينا، وهم يأبون إلا دفع علمنا بجهلهم، فمن ذا يطيق الصبر على هذا؟ وأما اللوم فأنتم تعلمون تعذر الدرهم الحلال، وإنا لا نبتغى الدرهم إلا حلالا، فإذا صار إلينا لم نخرجه إلا فى وجهه الذى لا بد منه .

مهمة التعليم :

وقر فى أذهان الكثرة العظمى من الناس أن المعلمين هم المنوط بهم نشر العلم وتعليم الراغبين فيه،ونحن لا ننكر ذلك، ولكن ننكر أن تكون هذه المهمة قاصرة على المعلمين وحدهم، فهى مهمة كل متعلم، لا بمعنى التصدى "للمهنة"، ولكن بالمعنى الذى يجعل علم كل صاحب معرفة مكتبة مفتوحة، يطلع كل راغب على ما فيها، فنشر العلم وإذاعته بين الناس واجب، لا يقل وجوبًا عن طلب العلم، بل هو لازم له، فمن يطلب العلم سوف يطلبه ممن يملكه، ولن يحصل عليه إذا بخل صاحب العلم وضن بما يعلم، وقد مر بنا التحذير النبوى المخيف لمن يكتم ما يسأل عنه من معرفة .

ولا نظن أننا نبالغ إذا قلنا إن من ينقل معرفة إلى آخر فهو بذلك مما ينطبق عليه وصف "دال على الخير"، ذلك الصنف من الناس الذين أعلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– من قدرهم ورفع من شأنهم بقوله: "الدال على الخير له مثل أجر فاعله"، كما رواه مسلم وأبو داود.

وعن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نضر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم الجماعة، فإن الدعوة تحيط من ورائهم" (جامع بيان العلم، ج١، ص ٤٧) .

ففى هذا الحديث أن العمل التعليمى يمر بثلاث مراحل: الأولى معلم، وهو هنا رسول الله ﷺ ينقل إلى الناس معرفة، والثانية : متعلم يسمع ويتلقى ما ألقاه المعلم، وثالثها: يقوم هذا المتلقى بنقل ما تعلمه إلى آخرين، هذا مع الإقرار بأن هناك من يتلقى العلم وهو غير مستوعب له أو غير مدرك وفاهم فهمًا يوقفه على أبعاد الموضوع والغاية منه وآثاره وما يقابله وما يوافقه، ومن هنا تأتى أهمية أن ينقل السامع ما سمع إلى طرف ثالث ورابع، فلربما كان هؤلاء أكثر قدرة على الوعى والفهم والفقه .

ومع هذه الدعوة إلى أن تكون عملية التعليم مثل حجر تلقيه فى النهر فيُحدث موجة،

فإذا بهذه الموجة تحدث ثالثة، والثالثة تحدث رابعة وهكذا دواليك، فإن هناك دائمًا المنظومة الأخلاقية التى يحرص رسول الله ﷺ أن تصاحب العمل، ويلخصها ﷺ فى ثلاث :

إخلاص العمل لله ..

ومناصحة أئمة المسلمين ..

ولزوم الجماعة ..

وروى أبو موسى الأشعرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يبعث الله العباد يوم القيامة، ثم يميز العلماء فيقول : يا معشر العلماء إنى لم أضع فيكم علمى إلاَّ لعلمى بكم، ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم، انطلقوا فإنى غفرت لكم" (جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص ٥٧).

ونسب إلى على بن أبى طالب شعر يسير فى السياق نفسه من حيث الحث على نشر العلم بين الناس، وذلك ببيان المقام الرفيع للعلماء (جامع بيان العلم، ج١، ٥٨) :

الناس فى جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظُم خلقت فيهم أعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه	وللرجال على الأفعال أسماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين فى مسجده، أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويُعَلمونه، فقال رسول الله ﷺ: "كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من الآخر، أما هؤلاء

فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلمًا"، ثم أقبل فجلس معهم .

ففى مثل هذا الموقف يرى القارئ مقارنة بين موقفين،كلاهما طيب، لكن أحدهما أكثر طيبة وخيرًا؛ ذلك أن الذين يدعون الله،ويرغبون إليه، يقومون بعمل منشود حقًّا، لكن الفئة الثانية، تزيد على ذلك بأمر آخر،وهو أنهم يتعدون الدعوة والدعاء إلى غيرهم من أبناء المسلمين، يبصرونهم وينيرون قلوبهم بنور العلم، وينيرون عقولهم بضياء المعرفة .

وأفضل الفترات التى يحسن فيها التعليم هو فترة الصغر خاصة، وكانت المقولة الشهيرة بتعذر التعلم عند الكِبَر شائعة لدى كثيرين،وهو ما عبر عنه قول قائل (جامع بيان أهل العلم، ج١، ص١٠٠):

قد ينفع الأدب الأحداثَ فى مهل ... وليس ينفع عند الكبر الأدب

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولن تلين إذا قومتها الخشب

وقال آخر (ص١٠٢):

أرانى أنسى ما تعلمت فى الكبر ... ولست بناسٍ ما تعلمت فى الصغر

وما العلم إلا بالتعلم فى الصبا ... وما الحلم إلا بالتحلم فى الكبر

ولو فلق القلبَ معلم فى الصبا ... لألفى فيه العلم كالنقش فى الحجر

وما العلم بعد الشيب إلا تعسف ... إذا كلّ قلبُ المرء والسمع والبصر

وما المرء إلا اثنان عقل ومنطق ... فمن فاته هذا وهذا فقد دمر

ومن هنا فقد كان النصح للمعلم أو العالم أن يحث المتعلمين والناس على أن يسألوه فيما يعن لهم وما يجهلوه، فقد قيل لعلى : يا أمير المؤمنين إن ها هنا قومًا يقولون: إن الله لا يعلم ما يكون حتى يكون، فقال: ثكلتهم أمهاتهم، من أين قالوا ذلك؟ قيل: يتلون فى سورة محمد: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾، فقال على : من

لم يعلم هلك، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : أيها الناس تعلموا العلم واعملوا به، ومن أشكل عليه شيء من كتاب الله فليسألنى عنه . إنه بلغنى أن قومًا يقولون إن الله لا يعلم ما يكون حتى يكون، لقوله عز وجل (الآية السابقة)، وإنما قوله عز وجل: "حتى نعلم"، يقول : حتى نرى من كتب عليه الجهاد والصبر إن جاهد وصبر على ما نابه وأتاه مما قضيت عليه (جامع بيان العلم، ج١، ص ١٣٩).

أسس طلب العلم والتعليم :

تفرقت الآداب والقواعد التى تناولها ابن عبد البر بين صفحات كتابه لضبط عمليتى التعلم والتعليم مما يزيد من فاعليتهما، ويمكن استخلاص أبرزها فى النقاط التالية :

- **تشجيع النزعة إلى التساؤل :** إذ إن هذا يعنى توافر القاعدة الأساسية للتعلم والتعليم ألا وهى الشعور بالحاجة، والدافعية الذاتية، ومن هنا يأتى قوله صلى الله عليه وسلم: "شفاء العىِّ السؤال"، وكانت مناسبة ذلك ما حدث به عطاء بن رباح قوله: "سمعت ابن عباس يخبر أن رجلاً أصابه جرح على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ثم أصابه احتلام، فأمر بالاغتسال، فقُرّ (أصابه برد) فمات، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : قتلوه قتلهم الله : ألم يكن شفاء العى السؤال ؟ فلو سألوا رسول الله كانت إجابته ستكون: "لو اغتسل وترك موضع الجراح" (جامع بيان العلم، ج١، ص١٠٦).

وكذلك قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: "رحم الله نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن"، وهو الأمر الذى نفتقده عن البعض حتى وقد دخلنا القرن الحادى والعشرين، حيث نجد بعض طلاب العلم يحجمون عن طرح ما قد يعنّ لهم من تساؤلات خجلاً، وخشية أن يكون تساؤلهم ساذجًا بسيطًا، فيستجلب لهم سخرية زملائهم!

وما أبدع ما أنشده أمية بن أبى الصلت فى هذا (ج١، ص١٠٦):

لا يذهــبن بك التفــريط منتظـرًا طول الأناة ولا يطمح بك العجل

فقــد يزيـــد السؤالُ المرءَ تجربــة ويستريح إلى الأخبار من يســـل
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ولا البصير كأعمى مـا لـه بصـــر
فاستخبر الناس عما أنت جاهـله إذا عميت فقد يجلو العمى الخبر

وسئل الأصمعى : بم نلت ما نلت ؟ قال : بكثرة السؤال وتلقى الحكمة الشرود.

وإذا كان التساؤل واجبًا على المتعلم، فهو واجب كذلك على المعلم كطريقة أساسية من طرق التعليم، فيقوم هو بطرح التساؤلات على الطلاب، ويستشهد ابن عبد البر هنا بما كان يفعله رسول الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر من أن رسول الله ﷺ قال يومًا: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل الرجل المسلم، حدثونى ما هى؟" قال عبد الله: فوقع الناس فى شجر البوادى، ووقع فى نفسى أنها النخلة، قال فاستحييت، فقالوا : يا رسول الله، ما هى ؟ قال : "النخلة". قال عبد الله بن عمر، فحدثت عمر بن الخطاب بالذى وقع فى نفسى، قال عمر :لأن تكون قلتها أحب إلىّ من أن يكون لى كذا وكذا. متفق عليه.

ففى هذا الموقف عدة معانٍ جليلة، أولها أنه كان أسهل لرسول الله ﷺ أن يقول للناس إن النخلة شجرة لا يسقط ورقها. وهو الأمر الذى يقع فى خبرتهم، لكنه أراد أن يستثير عقولهم. ومن ناحية أخرى فإن عمر بن الخطاب بيّن لابنه خطأه فى التزام الصمت بذريعة الحياء، فلا حياء فى العلم .

– **الرحلة فى طلب العلم :** وفى ذلك روى ابن عبد البر الكثير من الوقائع، وحتى نقدر قدر الرحلة فى طلب العلم فى هذه العصور المبكرة، فلا بد أن نستدعى إلى الذاكرة ما كان من الاعتماد على الدواب وحدها فى السفر مما يستغرق عدة أيام، وما يستتبعه هذا من ضرورة التزود بكم من المؤن التى يمكن أن تسد الحاجة،مع ما يمكن أن يقابل المسافر من أخطار الطريق!

وفى هذا قال ابن عباس : كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فلو أشاء أرسل إليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت، ولكنى كنت أذهب إليه فأقيل على بابه،

حتى يخرج إلىّ فيحدثنى (جامع بيان العلم، ج١، ص١١٢).

كذلك قال مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، قال سعيد : إنى كنت أسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد" .

- **التعلم والتعليم عمليتان مستمرتان:** وهو المعنى المستفاد من حديث ابن عبد البر من حيث الإلحاح على استدامة الطلب للعلم، حيث روى عن مالك بن أنس "لا ينبغى لأحد يكون عنده العلم أن يترك العلم"، وعن ابن عباس فى رواية له عن رسول الله ﷺ قوله: "من جاء أجله وهو يطلب علمًا ليحيى به الإسلام لم تفضله النبيون إلا بدرجة" .

وتتوالى استشهادات ابن عبد البر من خلال عدد من علماء المسلمين فى الصدر الأول للإسلام خاصة من صحابة رسول الله ﷺ ، فقد حدث ابن مناذر قال: سألت أبا عمرو بن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ فقال: ما دام تحسن به الحياة. كما سئل سفيان ابن عيينة: من أحوج الناس إلى طلب العلم ؟ قال : أعلمهم؛ لأن الخطأ منه أقبح (ج١، ص ١١٥).

- **العلم مكتسب :** والإيمان بهذا المبدأ فيه تأكيد على ضرورة العملية التربوية، فقد روى عن بعض العلماء قولهم: "إن الرجل لا يولد عالمًا وإنما العلم بالتعلم"(ص١٢٠)، وفى ذلك روى قول قائل :

قد قيل قبلى فى الكلام الأقدم إنى وجدت العلم بالتعلم

ومن أصول عملية الاكتساب "تذاكر"العلم، كما كان فى العهد الأول، النصح بتذاكر الحديث النبوى، فقد نسب إلى على - رضى الله عنه- قوله: "تزاوروا وتذاكروا فإنكم إلا تفعلوا يدرس علمكم" (ج١، ص١٢١).

وروى أيضًا ابن عبد البر عن بعض علماء السلف أتوا أم الدرداء فتحدثوا عندها فقالوا: أمللناك يا أم الدرداء. فقالت : ما أمللتمونى، لقد طلبت العبادة فى كل شىء، فما وجدت شيئًا أشفى لنفسى من مذاكرة العلم، أو قالت، من مذاكرة الفقه .

– **التدرج فى التعلم :** وهو مبدأ على قدر عالٍ من الأهمية، يؤكد على أن القدرة على التعلم، وقابليته تقتضى ألا ندفع بموضوع التعليم إلى المتعلم دفعة واحدة، بل نقدمه له خطوة خطوة،ومن ذلك ما روى عن ابن شهاب قوله ليونس بن يزيد : "يا يونس، لا تكابر العلم فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالى، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن شىء بعد شىء مع الأيام والليالى" (ج١، ص ١٢٥).

ولذلك حرص ابن عبد البر أن ييسر للمعلم أسس عملية التدريج، فأكد على أن للعلم منازل، لا بد للمتعلم ألا ينتقل إلى مرتبة قبل أن يتمكن من سابقتها، وهذه المراتب تسير وفق المراتب التالية : أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر، وزاد فى بعض الروايات "الإنصات" بعد الاستماع، وإن كان الفرق بينهم ليس كبيرًا .

ومن الملاحظ هنا أن التتابع يقوم على منطق معقول، فبداية كل عمل فى الإسلام، النية، ومن الطبيعى أن يستمع المتعلم للمعلم وينصت، حتى يعرف ما يقول، فإذااستمع وأنصت كان من الضرورى أن يفهم هذا الذى استمع إليه، وهو الأمر الذى لا بد أن نؤكد عليه، حيث إن هناك – مع الأسف الشديد– وهم لدى البعض مؤداه أن التربية الإسلامية قامت على مجرد الحفظ، دون فهم، مع أن الحفظ، بمقاييس ذلك الزمان، وهو الخطوة التالية بعد الفهم، كان ضرورة لعدم وصول الإنسان بعد إلى الطباعة .

كذلك يستلفت نظرنا التأكيد على التطبيق،وهو المقصود طبعًا بالعمل، على ألا يقتصر من تعلم على نفسه، بل لا بد أن يتعدى ذاته ليذيع ما علم على غيره ممن لم يعلموا (جامع بيان العلم، ج١، ص ١٤٣).

وخرج عبد الله بن مسعود على جماعة من المسلمين، فقال لهم : "إنى لأخبر بمجلسكم، فما يمنعنى من الخروج إليكم إلا كراهية ملّكم، وإن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا" .

– **معيار المنفعة والجودة :** وهما من المعايير التى قد لا يكون لها تاريخ صلاحية، بمعنى أنهما مطلوبان فى كل عصر ومكان، فها هو ابن عباس يقول، فيما روى ابن عبد البر: العلم أكثر من أن يحاط به، فخذوا منه أحسنه، ولذلك روى ابن عبد البر قول الشاعر (ص١٢٧):

ما أكثر العلم ومـــا أوسعه　　من ذا الذى يقدر أن يجمعه

إن كنت لا بـــد له طالبا　　محـــاولا فـالتمـس أنفعــه

وكان يقال : العالم النبيل الذى يكتب أحسن ما يسمع، ويحفظ أحسن ما يكتب، ويحدث بأحسن ما يحفظ .

ومما يتسق مع هذا السياق ما روى عنه ﷺ، فيما رواه ابن عباس: "كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، اللهم إنى أعوذ بك من هؤلاء الأربع" . رواه الترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم.

– **التقوى، سدرة المنتهى :** فما من جهد يبذله طالب المعرفة، وما جهد ينفقه المعلم والعالم إلا ويؤكد ابن عبد البر، وآخرون يشاركونه فى ذلك، أن التقوى، التى هى جماع الفضائل الإسلامية هى نقطة البداية وهى نقطة النهاية، نقطة البداية من حيث تطهير الجوارح مما يمكن أن يشين الجهد التعليمى،ومن حيث عقد النية والإخلاص لله وللعلم ولطلاب العلم وجماعة المسلمين، ونقطة النهاية من حيث تحلية الشخصية المسلمة بكل ما يشكل جواز مرور إلى الجنة التى أعدها المولى – سبحانه وتعالى– لعباده الصالحين .

وكعادته، يروى ابن عبد البر العديد من الأقوال والروايات التى تؤكد على هذا المضمون، فمن ذلك ما نقل عن سفيان الثورى من حيث قوله: "إنما يتعلم العلم ليُتقى به الله، وإنما فضل العلم على غيره؛ لأنه يتقى به الله" (ج١، ص٢٣٥).

ولهذا أيضًا يُحَذّر من هذا الصنف من حاملى العلم الذين يوجهون جهودهم نحو الشر والفساد،ومن هنا يأتى استشهاد ابن عبد البر بحديث منسوب إلى رسول الله ﷺ، عن ابن

وهب يقول: "هلاك أمتى عالم فاجر، وعابد جاهل، وشر الشر أشرار العلماء، وخير الخير خيار العلماء". وقال ﷺ أيضًا: "من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار"، ويدخل فى هذا السياق كذلك قوله ﷺ عندما سئل عن شر الناس أنه قال: "العلماء إذا فسدوا" (ج١،ص ٢٣٦).

وقد ساق ابن عبد البر الكثير من الأقوال ليؤكد على ضرورة التبصر من مغريات الحياة الدنيا، وفى الوقت نفسه ألا يعنى هذا تفضيل حياة الفقر والفاقة، ويسوق الدليل على أن التقلل من الدنيا والاقتصاد فيها والرضا بالكفاف منها والاقتصار على ما يكفى ويغنى عن الناس أفضل من الاستكثار منها والرغبة فيها، وأقرب إلى السلامة.

– **مراعاة قابلية المتعلم لموضوع التعلم:** هو ما عنون به ابن عبر البر بابًا بعبارته: "آفة العلم وغائلته وإضاعته، وكراهية وضعه عند من ليس بأهله"، حيث فهم البعض الكلمات الأخيرة بصفة خاصة وكأنها تدعو إلى "حبس" العلم، و"حصره" فى "صفوة"، وهو أبعد عن المراد، فالمقصود أن للعلم مستويات ودرجات، وليس كل مستوى، ولا كل درجة تصلح لأى إنسان،كذلك فإن من مسلمات القول الآن أن لكل إنسان استعداداته وقدراته،وكلّ ميسر لما خلق له . ومن جملة ما استشهد به ابن عبد البر به قول الشاعر (ص١٣١):

وإن عناء أن تُفهم جاهلاً ... فيحسب جهلاً أنه منك أفهم

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

متى ينتهى عن سيئ من أتى به ... إذا لم يكن منه عليه تقدم

كذلك نقل رواية عن عيسى – عليه السلام– قال فيها : "لا تمنع الحكمة أهلها فتأثم، ولا تضعها عند غير أهلها فتجهل، وكُنْ طبيبًا رفيقًا يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع" (ص١٣٣).

– **الإخلاص :** وهو هنا مقصود به إخلاص المعلم، حتى إنه لا يدخر وسعًا فى جهده لتعليم المتعلمين، وقد روى عن سفيان الثورى قوله : لو لم يأتونى لأتيتهم فى بيوتهم ..

بل وبلغ الإخلاص بالإمام الشافعى أن يقول للربيع بن أبى سليمان : يا ربيع، لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إياه .

وفى هذا السياق استشهد ابن عبد البر (ج١، ص١٤٢) بقول الشاعر :

ألا فاحفظوا وصفى لكم ما اختصرته ليدريه من لم يكن منكم يدرى

ففى شربة لو كان علمى سقيتكم ولم أخف عنكم ذلك العلم بالدخر

– **نشر العلم :** الإسلام يقوم على الدعوة، والدعوة تعنى أن يبشر الداعى غيره بالفكر الجديد، وبالتالى فإن كل ما تكون فيه قوة للإسلام وإضافة لعزة أهله، يستحق أن يدعو المسلم إليه، ولماكان العلم هو أبرز ما ينطبق عليه هذا، كان واجبًا على المسلم المتعلم أن يذيع ما علم وينشره بين الناس، وفى هذا روى ما قاله رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب: "يا على، لأن يهدى الله على يديك رجلاً واحدًا خير لك مما طلعت عليه الشمس"، رواه الطبرانى فى معجمه الكبير، ولهذا فقد نسب إلى على –رضى الله عنه– قوله: "لم يؤخذ على الجاهل عهد بطلب العلم، حتى آخذ على العلماء عهد ببذل العلم للجهال؛ لأن العلم كان قبل الجهل".

ويضاف إلى هذا ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قوله: "مثل الذى يتعلم العلم ولا يحدث به كمثل الذى يكنز الكنز ولا ينفق منه". رواه الطبرانى فى الأوسط (ج١، ص ١٤٨) . ويتصل بهذا كذلك ما قاله رسول الله ﷺ: "ألا أخبركم عن أجود الأجواد؟" قالوا: نعم يا رسول الله، قال : "الله أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدى رجل علم علمًا فنشر علمه، يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل". رواه أبو يعلى فى مسنده .

– **المساواة بين المتعلمين :** وهو المبدأ الذى يتصل اتصالاً وثيقًا بجوهر الرسالة الإسلامية التى أكدت على أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، ويمكن التوقف طويلا عند مضامين قيمة التقوى، لكن يكفى هذا المبدأ العام وهو ضرورة أن يطرح المعلم أية

فروق يمكن أن تكون بين طلابه، إلا وفقًا للاجتهاد والجدية والتفوق والتحصيل، وهى كلها من مستتبعات التقوى، ولذلك استشهد ابن عبد البر بقول القائل:

علـم العـلم لمـن أتاك لعلم واغتنم ما حييت منه الدعاء

وليكن عندك الفقير إذا ما طلب العلـم والغنى ســـواء

– **التيسير والحلم :** وهما مرتبطان، فالتيسير على المعلمين هو صورة من صور الحلم، والحلم لا يكتمل إلا إذا كان المعلم غير متعنت،ولهذا قال ﷺ: "علموا، ويسروا، ولا تعسروا، ثلاثًا"، وروى عنه أيضًا، ﷺ قوله: "تعلموا العلم، وتعلموا له السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ولا تكونوا جبابرة العلماء" (ج١، ص١٥١).

وجاء فى هذا السياق أيضًا: ما من شىء أشد على الشيطان من عالم حليم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، يقول الشيطان: انظروا إليه كلامه أشد علىَّ من سكوته!

– **وجوب التفرقة بين العلم والثقافة :** ففى سياق عملية التعليم والتعلم لابد من التفرقة بين نهجين، نهج يقوم على أن يتخصص المتعلم فى مجال بعينه، فهو يكون، بعد تمام تحصيله: عالمًا، أما إذا أراد أن يكون مثقفًا، وإن كان اللفظ الذى استخدمه ابن عبد البر هو "أديبا"، فعليه عندئذ أن يأخذ "من كل شىء أحسنه"، ويبدو أن ابن عبد البر كان أميل إلى أن يتخصص المتعلم فى مجال بعينه، سعيًا نحو الإتقان؛ ولذلك فهو يستشهد بقول أبى عبيدة القاسم بن سلام: "ما ناظرنى رجل قط وكان مفننًا فى العلوم إلا غلبته، ولا ناظرنى رجل ذو فن واحد إلا غلبنى فى ذلك" (ج١، ص١٥٨).

– **الاعتراف بالخطأ:** من المسلمات البشرية حقًا أن الإنسان خطّاء، و"جل من لا يسهو"، ومن ثم يصبح من الغريب حقًا أن يكابر البعض، إذا نُبه على خطأ أتاه، لكن صاحب الصدر الواسع والأفق البعيد، يبادر إلى الاعتراف بما ينبهه عليه غيره من خطأ يكون قد وقع فيه، ومن أبرز ما يمكن الاستدلال به على هذا ما روى من أن عمر بن الخطاب قال مرة لجمع من المسلمين، رجالا ونساء: لا تزيدوا فىمهور النساء على أربعين أوقية، ولو كانت بنت ذى

العصبة (يعنى يزيد بن الحصين الحارثى) فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت المال، فقامت امرأة من صف النساء طويلة فيها فطس، فقالت: ما ذاك لك، قال: ولِمَ؟ قالت، لأن الله تعالى يقول فى سورة النساء: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾، فقال عمر قولته الشهيرة: امرأة أصابت ورجل أخطأ!

وجاء فى هذا السياق ما نقل عن مالك بن أنس: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا فى رأيى، فما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه" (ج٢، ص ٣٩).

– **العلم لا يُفرض بالقوة :** الأصل فى التعليم والتعلم أن يأتى الأمر رغبة واختيارًا من جانب المتعلم، ومن ثم فقد كان هناك وعى عميق بضرورة تجنب عملية الإكراه والفرض لمادة التعليم، وذلك وفقًا لرواية مهمة (ج١، ص ١٦٠) :

فقد حدّث محمد بن عمر قال: إنه سمع مالك بن أنس يقول : لما حج أبو جعفر المنصور دعانى فدخلت عليه فحدثته وسألنى فأجبته، فقال: إنى عزمت أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها، يعنى الموطأ، فننسخ نسخًا، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة،وآمرهم أن يعلموا بما فيها لا يتعدوها إلى غيرها،ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث، فإنى رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم. قال: فقلت : يا أمير المؤمنين، لا تفعل، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به ودانوا به من اختلاف الناس أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه وما اختار كل بلد لأنفسهم. فقال : لعمرى، لو طاوعنى على ذلك لأمرت به،وهذا غاية الإنصاف .

فهل رأينا عدلاً وحكمة مثل عدل مالك وحكمته ؟ عالم يطلب الحاكم الكبير، وهو من هو، أن "يقرر" ما كتبه هذا العالم على كل بلدان المسلمين، لكن العالم هو الذى يرفض ذلك، استنادًا إلى أنهم قد قرءوا من قبله ودرسوا واختاروا ما اختاروه، فحملهم على تغيير كل

هذا إلى ما كتب مالك، فيه تجاوز يرفضه الدين، وتأباه القواعد التربوية والنفسية، التى لم تكن علوم التربية وعلم النفس قد أثبتت بالتجارب والبحوث والدراسات أن فرض الفكر والإجبار على علم وكتب بعينها، لا يستقيم وما يجب أن يكون !

– **الدقة العلمية :** ولا نتوقع أن تكون مظاهر الدقة العلمية التى نقول بوعى ابن عبد البر بها، تتساوى مع ما نقول به فى أيامنا الحالية، ولكننا نؤكد أن المسألة مسألة "اتجاه" و"نزعة" و"نهج" إن تأكدت فى أكثر من قضية، فإننا نثق بتوافرها فى غيرها،وعلى سبيل المثال، فقد أوصى يحيى بن خالد ابنه جعفر فقال : لا ترد على أحد جوابًا حتى تفهم كلامه، فإن ذلك يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره، ويؤكد الجهل عليك، ولكن افهم عنه، فإذا فهمته فأجبه، ولا تعجل بالجواب قبل الاستفهام، ولا تستحى أن تستفهم إذا لم تفهم، فإن الجواب قبل الفهم حمق، وإذا جهلت فاسأل فيبدو لك، واستفهامك أجمل بك وخير من السكوت على العى (ج١، ص ١٧٩).

وفى هذا أيضًا ما نقل عن الإمام الشافعى: "ليس لأحد أن يقول فى شىء حلال ولا حرام إلاّ من جهة العلم، وجهة العلم ما نص فى الكتاب أو فى السنة أو فى الإجماع أو القياس على هذه الأصول فى معناها (ج٢، ص ٣٢).

ونُقل عن عبد الله بن عمرو أنه كان إذا سئل عن شىء لم يبلغه فيه شىء قال : "إن شئتم أخبرتكم بالظن" (ج٢، ص ٤٠).

– **عدم تكالب العلماء على ذوى السلطة :** وربما يبدو هذا المبدأ غريبًا وكأنه ليس من "آداب" التعلم والتعليم، لكننا فى الحق نرى أنه أدخل، ذلك أن مقاربة السلاطين، تعود العالم على النفاق وحبس الرأى الصحيح ابتغاء مصلحة شخصية، وتواضع الشعور بكرامة الذات وعزة النفس، ومثل هذا وذاك مما يقيم حاجزًا بين المتعلمين وبين المعلم أو العالم، فضلاً عن أنه يهز ثقة الآخرين به . ووصل الأمر ببعض علماء المسلمين أن يقول لتأكيد هذا المعنى الذى نقول،مما روى عن سفيان الثورى قال: فى جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك (ج١، ص ١٩٩) !!

ومن أطرف ما ساقه ابن عبد البر تصويرًا لحال هؤلاء العلماء والمثقفين الذين يسعون إلى تبرير انسياقهم فى هذا التيار (ج١، ص ٢٠٠):

يا جاعل العلم لـــه بـاريا	يصطاد أمــوال المسـاكين
احتلْت للدنيا ولـذاتـــها	بحيــلة تذهـــب بالـدين
فصرت مجنونا بها بعد ما	كـــنـت دواء المجـانـــين
أين رواياتك فيمـا مضى	عن ابن عون وابن سيرين
ودرســـك العلــم بآثاره	وتركك أبواب السلاطين
تقول أكرِهت فماذا كذا	زل حمار العلم فى الطين

وقد فصّل ابن عبد البر هذه القضية كثيرًا وطوّل فى ذكر الروايات والاستشهادات، مما يؤكد على خطورة المسألة،وانتهى إلى القول بأن من أعظم ما يخشى على من يدخل على الملوك الظلمة أن يصدقهم بكذبهم ويعينهم على ظلمهم، ولو بالسكوت عن الإنكار عليهم، فإن من يريد بدخوله عليهم الشرف والرياسة، وهو حريص عليهما، لا يقدم على الإنكار عليهم، بل ربما حسن لهم بعض أفعالهم القبيحة تقربًا إليهم ليحسن موقفه عندهم ويساعدوه على غرضه، وروى حديثًا لرسول الله ﷺ قال : إن تخريجه تم من قبل الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن حبان، فيما نقله كعب بن عجرة، عن النبى ﷺ قال : "سيكون بعدى أمراء، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى، ولست منه، وليس بوارد على الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم، فهو منى وأنا منه، وهو وارد على الحوض" (ج١، ص٢١٧) .

– **القدوة :** وهى قيمة وأسلوب أساسى فى الآداب الإسلامية، قد لا يخلو من قول بها كتاب أو حديث، وترجمة القدوة ان لا ينهى معلم عن خلق ويأتى مثله، كما هو مشهور،وهذا مصداق لقول المولى –عز وجل– فى كتابه الكريم فى سورة البقرة: ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤ ﴾، وكعادة ابن عبد البر من حيث

الاستشهاد بالشعر، نجد من يقول :

وصفت التقى حتى كأنك ذو تُقى ... وريح الخطايا من ثناياك تسطع

ومن يقول :

ما أقبح التزهيد من واعظ ... يُزهّد الناس ولا يزهد

لو كان فى تزهيده صادقًا ... أضحى وأمسى بيته المسجد

إن يرفض الدنيا فما باله ... يمنح الناسَ ويسترقد

الرزق مقسوم على من ترى ... يسعى به الأبيض والأسود

أصناف العلوم :

حرص كثير من علماء الإسلام والفلاسفة والمفكرين والمربين على أن يصنفوا العلوم المختلفة، ومن هنا فقد صنف ابن عبد البر العلوم كما يلى (ج٢، ص٤٦):

هناك قسمان من العلوم :

أولهما، يسميه ابن عبد البر "العلم الضرورى"، والضرورة هنا يقصد بها أن النتائج تفرض نفسها فرضًا على المتعلم من غير أن يبذل جهدًا مقصودًا من حيث الاستدلال والملاحظة والتجريب، وذلك مثل علم الواحد منا بأنه لا يمكن أن يكون قائمًا وقاعدًا فى آن واحد، وبأن الدنيا فيها مكة ومصر والصين والهند وغيرها، وكذلك ما تأتى به الحواس، كذوق اللسان المرارة والحلاوة، على شرط أن تكون الحاسة سليمة، ومثل رؤية الشىء يعلم بها الألوان والأجسام، وكذلك السمع يدرك به الأصوات.

ثانيهما : العلم المكتسب، وهو ما كان طريقه الاستدلال والنظر، ومنه الخفى والجلى، فما قرب من العلوم الضرورية كان أجلى وما بعد منها كان أخفى .

والمعلومات نوعان : شاهد، وغائب، فالشاهد ما علم ضرورة، والغائب ما علم بدلالة من الشاهد .

obeikandl.com

أما بالنسبة إلى العلوم، فمما نلاحظه أن ابن عبد البر ينظر إليها "عند جميع أهل الديانات"، ومن ثم يقسمها إلى ثلاثة أقسام: أعلى، وأسفل، وأوسط :

والعلم الأعلى هو علم الدين، وهو الذى "لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أوله الله فى كتبه وعلى ألسنة أنبيائه" .

أما العلم الأوسط، فهو معرفة علوم الدنيا، مثل علم الطب والهندسة .

والعلم الأسفل هو أحكام الصناعات وضروب الأعمال، مثل السباحة والفروسية والزى والتزويق والخط، وما أشبه من أعمال "تحصل بتدريب الجوارح" .

ومن الملاحظ أن هذا التقسيم ينبنى على الأسس نفسها التى تداولها الفكر الإنسانى على مر القرون السابقة، وخاصة لدى الفلاسفة القدماء، مع تعديل يتلاءم مع المنظور الدينى لابن عبد البر، فالفلاسفة يجعلون العلوم الأعلى هى المنطق والفلسفة، وخاصة الميتافيزيقا، بينما يجعلها مفكرنا هنا : علوم الدين .

وقد ترتب على النظرة الرأسية إلى العلوم أنه نظر بتواضع إلى المواد والمبادئ المتصلة بالصناعات اليدوية والحرف التى تتدرب الجوارح لها، فأحلها المنزلة السفلى من سلم المهن والعلوم، مع ما فى هذا من تباعد عن روح الإسلام التى لا تفضل عملا على آخر لذاته، فالقرآن الكريم عرض للمسلمين قصصًا عن حياة الأنبياء، ومنهم من كان حدادًا أو نجارًا أو راعيًا، فلا تفاضل بين الأعمال إلا بمقدار ما تحققه من وظائف لخدمة مقصود الله – عز وجل– من الخلق (عبد البديع عبد العزيز، ص ١١٠).

وربما دفع ابن عبد البر للقول بهذا هو الوضع المتردى الذى كانت عليه الأعمال اليدوية واختصاص الموالى والعبيد بها .

وإذا كان الفلاسفة يجعلون علم الموسيقى من علوم الوسط، إلا أن ابن عبد البر يقول: إنه "منبوذ عند جميع أهل الأديان على شرائط العلم والإيمان"(ج٢، ص٤٧).

وبالنسبة إلى علم الحساب، وهو من علوم الوسط، فهو يؤكد أنه "علم لا يكاد يستغنى عنه

ذو علم من العلوم" .

أما ما يتصل بالفلك، فقد التبس فى نظر البعض بالتنجيم، لكن ابن عبد البر يظهر وعيه فى وجوب التفرقة بين موضوعات يُعْتَد بها، مثل معرفة ساعة الليل والنهار، وبعد كل بلد عن خط الاستواء،ومولد الهلال وظهوره، واطلاع الكواكب للأنواء وغيرها، وكسوف الشمس والقمر ووقته ومقداره، وما سار على هذا النهج .ومن هنا فالرجل ينقل قول عمر: "تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر، ثم أمسكوا" (ج٢، ص٤٨).

ومن يتأمل ما كتبه ابن عبد البر خاصاً بالفلك يمكن أن يلاحظ اختلاط الدائرة الفلكية بالدائرة الجغرافية ودائرة التنجيم .

وفى كل الأحوال، فالحاكم الأساسى لتقدير ما ينبغى تعليمه وتعلمه لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار المقصد والهدف، وبالتالى يمكن القول بأن ابن عبد البر يؤكد على ثلاثة أمور: الأمر الأول أن طلب العلم فى حد ذاته عبادة،والقيمة الدينية للعلم وطلبه يؤكدها ابن عبد البر بهذا الحديث الذى يقدمه فى هذا السياق: "تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة .." (ج١، ٦٥)كما سبق أن أوضحنا وفصلنا .

والأمر الثانى أن هذا النوع من العبادة – أى العبادة عن طريق طلب العلم – أفضل من العبادة المعروفة، وحيث سبق أن استشهدنا بقول رسول الله ﷺ: "فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى" (ج١، ص ٢٦) .

والأمر الثالث، هو أن العلم – بجوار الأهداف الدينية- يطلب أيضًا لتحقيق أهداف دنيوية، حيث استشهد بقول عبد الملك بن مروان لبنيه: "يا بنى، تعلموا فإن استغنيتم كان لكم كمالا، وإن افتقرتم كان لكم مالا" (ج١، ص ٦٨).

مراجـــع:

١- عبد البديع عبد العزيز عمر الخولى : الفكر التربوى فى الأندلس، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٥، ط٢ .

٢- ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله،وما ينبغى فى روايته وحمله، حققه: عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، ١٩٦٨، ط٢ .

٣- عبد الرحمن النحلاوى : يوسف بن عبد البر القرطبى، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٦م.

obeikandl.com